مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

كونية الأمثال وفعل التذكر في الشعر الجاهلي

أ.د. عواد كاظم لفته
الباحثة لينا خالد عبد الواحد
جامعة ذي قار ـ كلية الآداب

ملخص
لقد زخرت الذاكرة الشعرية في العصر الجاهلي بتنوع المخزون الثقافي المكتسب، لا سيما الأمثال التي تجسد قصص وحوادث مختصرة واقعية أو خيالية رسمت بكلمات موجزة يسترجعها الشاعر، إذا ما تعرض لموقف ذاتي أو شاهد حدث اجتماعي مطابق في تفاصيله للحادثة التي قيل على إثرها المثل، لما تحتويه من طاقات ايحائية تثير ذهن المتلقي لربط المثل بالقصة التي يروم إيصالها ويعتمد ذلك على ثقافة المتلقي والمامه بقصص الأمثال.

Summary
The poetic memory in the-Islamic era abounded with the diversity of the acquired culture stock, especially the proverbs that embody short stories and incidents, real or imaginary, drawn in brief words that the poet recalls, if he is exposed to a personal situation or witnesses a social event that is identical in its details to the incident in which the proverb was said, because of what it contains. From suggestive energies that stimulate the mind of the recipient to link the proverb with the story he wants to communicate, and this depends on the culture of the recipient and his familiarity with the stories of proverbs.

مقدمة
تعد الأمثال من الفنون الأدبية و((ضرباً من الحكم، والقول الجيد الذي يمتاز بالصياغة المحكمة، والإيجاز الشديد، وشيء من المبادهة، حيث تبده السامع بما يثيره، أو يفسر له مسلكاً، أو موقفاً من المواقف التي يتعرض لها))[١].

ولاشك في أنَّ الأمثال غالباً ما تجسد قصص وحوادث حصلت في الحياة، ولصعوبة الاحتفاظ بتفاصيل تلك الحوادث، واعادتها كما ذكرت أول مرة، لكون العرب يعتمدون على الذاكرة في نقلها[٢]، لذلك عمدوا إلى الإيجاز والتركيز حيث ((اخرجوها في أقواها من الالفاظ، ليخف استعمالها، ويسهل تداولها، فهي من أجل الكلام وانبله واشرفه لقلة الفاظها وكثرة معانيها، ويسير مؤونتها، على المتكلم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها))[٣]، ومن ثم استأثروا العناية بالأمثال لأنها ((أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الامة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها، فهي تصور المجتمع وشعوره، وتعكس ضروب الحياة وفنونها،

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

السياسية، والثقافية، والدينية، واللغوية))[٤]،فجرت على ألسنتهم وتناقلوها للدلالة على الاستمرارية، وتعميق الصلة بين الماضي والحاضر[٥]، وقد كان له حضور بارز، في النصوص الشعرية الجاهلية، ولا سيما الشعراء الذين أثروا قصائدهم به، وجعلوه ركيزة رئيسة يسترفدون منها ألفاظهم ومعانيهم الشعرية ويضيفون إليها بعداً دلالياً جديداً يناسب الموضوع المطروق. إذْ وجدوا في أحداث التاريخ والقرون الخالية وسيلة يبوحون من خلالها عما فاضت به مكنونات أنفسهم من مشاعر مختلفة، فمضوا يسترجعون قصصها لا شعورياً المختزنة في اللاوعي الجمعي الجاهلي، في شتى المواضيع والأغراض الشعرية المتنوعة[٦]، أما بصورة كلية أو جزئية أو إيحائية .

وبناءً على ذلك عند التنعم في النصوص الشعرية الجاهلية، واستقراء ورود الأمثال فيها نجد أن المثل اتجه اتجاهات مختلفة، فهو اما ان يكون ذا بعدٍ تاريخي، أو ان يأتي متضمناً معنى اشارياً ميتافيزيقياً يساهم في اعادة تأسيس المجتمع .

وقد يستعين الشعراء بما حفظته الذاكرة العربية من الأمثال ذات البعد التاريخي، كوسيلة تمكنهم من احاطت الحقائق التاريخية بإطار أدبي يحافظ عليها من الضياع، فالأمثال والأشعار تتضمن أخبار تاريخية ماضية لها مردود في القلوب والعقول والأسماع[٧]،حيث يورد الشاعر الجاهلي الأمثال التاريخية المتداولة آنذاك مستذكراً أحداثها:

وللحـــارثِ الجَفْنيّ سيّـــدِ قومِـــــهِ ... لَيَلْتَمِسَـنْ بالجَيـْشِ دارَ المُحـارِبِ
وَثِقتُ لـه بالنّصرِ إذ قيلَ قد غزَتْ ... كتـائِبُ مِنْ غَسّـانَ غيـرُ أشـائِبِ
فهُـــمْ يتَساقـــوْنَ المنيّـــةَ بَيْنَهُـمْ ... بأيديهِـــمُ بيـضٌ رقـاقُ المَضـارِبِ
يَطيرُ فُضاضـاً بَيْنَهـا كـلَّ قونَـسٍ ... ويتبَعُها مِنْهُـمْ فـَراشُ الحـواجِـبِ
ولا عَيبَ فيهِمْ غيرَ أنّ سُيُـوفَهُـمْ ... بهِـنّ فُلُـولٌ مِـنْ قِـراعِ الكَتـائِبِ
تُـورّثْـنَ مِـنْ أزْمـانِ يَـوْمِ حَليمَـةٍ ... إلى اليومِ قد جُرّبنَ كلَّ التَجـارِبِ
تَقُدّ السَّلُـوقيَّ المُضـاعَفَ نَسْجُـهُ ... وتُوقِـدُ بالصُّفّـاحِ نـارَ الحُبـاحِـبِ
بضَرْبٍ يُزيلُ الهـامَ عـن سَكِناتـِهِ ... وَطَعْنٍ كإيزاغِ المَخـاضِ الضّوارِبِ[٨]

أثار الأمر حفيظة الشاعر الجاهلي لعلاقته الوطيدة بالغساسنة، فمضى إلى التاريخ ليبحث في كونه الخزائني عن بطولاتهم وامجادهم والعمل على اعادة احياء ذكرها من جديد وتوجيهها بوصفها فعل تذكر، بوساطة استثمار المثل القائل (ما يوم حليمة بسر) وهو من أشهر أيام العرب في الجاهلية، التي دارت رحاها بين جيش الحارث بن جبلة الغساني (ملك غسان) وجيش المنذر بن ماء السماء (ملك الحيرة)، وقد انتهت بانتصار الحارث بن جبلة بمقتل المنذر، أشد ملوك المناذرة، أما حليمة فهي ابنة ملك غسان الحارث بن جبلة، المعروفة بجمالها الفائق حيث اعزى إليها تطييب من يمر بها من الجند، وأخذ بتحفيزهم على قتال المناذرة، بأن يزوجها لمن يقوم بقتل المنذر وفعلاً حصل ذلك[٩]، حيث قيل: ما ((أرتفع في هذا اليوم من العجاج ما غطى عين الشمس حتى ظهرت الكواكب))[١٠]، فذهبت أحداث هذه الواقعة مثلاً تستذكره الأجيال ويعيد فعل التذكر لكل أمر معروف لا يمكن اخفاؤه. فاستدعاه الشاعر ليتخذه مدخلاً للتذكير بقوة الغساسنة وشدة بأسهم وبيان الدور الريادي لقادتهم في إدارة زمام المعارك لإحراز النصر ، فهم قوم أشداء لا عيب فيهم سوى تثلم سيوفهم من كثرة خوض المعارك.

ويصور لنا الشاعر الجاهلي حالة الصراع النفسي، فيلوذ باستذكار حكاية مثل من الموروث التاريخي القديم للاعتذار عما قام به:

وأيَّ مليـــكٍ مـــن مَعَـــــدٍّ علِمْتُـــــمْ ... يُعَـذَّبُ عبـــــداً، ذى جَـــلالٍ وذى كَـــرَمْ

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

أمِنْ أجلِ كَبشٍ لَـمْ يَكُنْ عِنْدَ قريَـةٍ ... ولا عنـــد أذْوادٍ رتَـــــــاع ولا غَنَـــمْ
يُمَشِّيْ كـأنّ لا حيَّ بالجِـزع غَيـرَهُ ... ويَعلُـــو جراثيـمَ المَخـــــارمِ والأكَـــمْ
فـــوَ اللهِ مَـا أدري وإنِّـي لَصـادقٌ ... أمِن خَمَـــــرٍ يأتي الطَّـــلالَ أم أتَّخَـمْ
بَصرتُ بهِ يوماً وقد كـاد صُحبتـي ... منَ الجُوعِ أنْ لا يَبلُغُوا الرَّجـمَ مِ الوَحَـمْ
بـذي حَطَـبٍ جَـــزالٍ ... ومِبـرَاةِ غَـــزَّاءِ يقـــال لهـــا لفـائـــدٍ هُـــدُمْ
وزندى عَفَـارٍ في السلاح وقـادح ... إذَا شئـتُ أورَى قبـلَ أن يَبلُـغَ السَّـأمْ
وقـالَ صحـابي أنّكَ اليـومَ كائـنٌ ... علينـــا كمـــا عَفَّى قُـــدَارٌ علـى إرَمْ(١١)

إذ عبرت الأبيات عن عمق الألم النفسي الذي ساور ذات الشاعر، وادخله في حالة من القلق والتوجس والترقب، والتي دعته يستذكر المثل القائل (أشأم من أحمر عاد) وهو يحكي قصة قدار بن سالف، الذي عقر ناقة النبي صالح (عليه السلام)، الذي عاقب الله قومه بالهلاك لفعله(١٢)، فصار مرتبط في عقلية العرب في التذكر بأفعال الشؤم والهلاك، فاسترجعه الشاعر في قوله (علينا كما عفى قدار علي أرم) كوسيله ايحائية كونية الدلالة لامتصاص غضب النعمان بن المنذر وتخليص أصدقائه من عقابه .

وكما استمد الشعراء الجاهليون من محيطهم الاجتماعي ما تناقل من قصص وما يتصل بها من أحداث اختزنتها الذاكرة الجاهلية في التعبير عن الواقع المعيش في قصائدهم، إذْ تعكس لنا الواقع النفسي المأزوم والاحساس بالفجيعة في فعل تذكر شديد الحزن:

أعَيـنِ ألا فابْكِـي لِصَخْـــرٍ بـــدَرّةٍ ... إذا الخيل من طول الوَجيفِ اقشعـرّتِ
إذا زَجَروهـــا في الصّريـخ وطابقَـتْ ... طِبـاقَ كِـــلابٍ في الهـــراشِ وهَـــرّتِ
شَدَدْتَ عِصابَ الحَرْبِ إذ هيَ مانعٌ ... فألْقَـتْ برجْليهـــا مَـريّـــاً فـــدَرّتِ
وكانـتْ إذا مـا رامَهـا قبـلُ حالـبٌ ... تَقَتْـــهُ بايـــزاغ دَمـــاً واقمَطـــرّتِ
وكانَ أبـو حسّـانَ صَخْـرٌ أصابَهَـا ... فـأرْغَثَهـا بالـرّمْـــح حتـى أقـــرّتِ(١٣)

وهذا دفع النص إلى أنْ يمتطي صهوة الماضي بوساطة فعل التذكر في المثل القائل (شد عصاب الحرب)، وقد ضربته العرب لقوة الحرب، واصله ((أنَّ الناقة إذا امتنعتْ من الحلب عصب فخذاها فتدر))(١٤)، وقد وظف النص فعل التذكر في المثل (شدت عصاب الحرب إذ هي مانع) لاستجلاب صورة ذلك الفارس الهمام الذي يمسك زمام الحرب بحكمته، بوساطة المقابلة بين الناقة وشجاعة الأخ في إدارة الحرب، فالحرب شرسة لها رجلان تعقلان، ولا يمكن حلبها إلا بعد ترويضها، وهذا لا يتقنه أي فارس، لأنها ترفض وترمي من يقترب منها بالدم لا باللبن، إلا أنَّ المرثي بما يمتلك من صفات القوة والبطولة يستطيع حلبها، وإذا كان تدويخ الناقة بواسطة الحبال فإنه قادر على أنْ يدوخ الحرب بالخيل التي ترهب جموع الأعداء، واخيراً يفك عصابها بملاحقة فلول الأعداء حتى تحقيق النصر(١٥).

وقد يبدي الشاعر الجاهلي عما اختلج جوانحه من الاحساس بالغبطة والسرور بعد انفراج همه على يد ممدوحه الذي اثنى عليه بوساطة الاتكاء على كونية المثل واستقراره في ذاكرة الوعي الجمعي ومن ثم اعادة فعل التذكر المتجسد منه:

ضَرَبَتْ لَمَّـــا اسْتَقَلَّـتْ مثـــلاً ... قالَـهُ القُـــوَّالُ عن غَيْـرِ وَهَـــمْ
مَثَـــــلاً يَضْرِبُـــــهُ حُكَّامُنَـــا ... قولُهُمْ: في بَيْتِـــهِ يُؤْتَى الحَكَـمْ

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

فأجَابَتْ بِصَوَابٍ قولُهَا: مَنْ يَجُدْ يُحْمَدْ، ومَنْ يَبْخَلْ يُذَمْ
إنَّمَا جَادَ بِشَأسٍ خَالِدٍ بَعْدَ ما حاقتْ بِهِ إحْدَى العُظَمْ[١٦]

واحداث هذا المثل مما قالته العرب على السنة الحيوانات قالوا: (إن الأرنب التقطت ثمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب: يا أبا الحسل فقال: سميعاً دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال عادلاً حكمتما، قالت فاخرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم، قالت: إني وجدت ثمرة، قال: حلوة فكليها، قالت: فاختلسها الثعلب، قال: لنسقه بغى الخير، قالت: فلطمته، قال: بحقك أخذت، قالت: فلطمني، قال: حر انتصر، قالت فاقض بيننا، قال: قد قضيت)[١٧]، فذهبت اقواله امثالاً كونيةً اختزنت في اللاوعي الجمعي العربي للدلالة على الحكم بالعدل، وقد استطاع الشاعر بما يمتلك من ثقافة واسعة والمامه بأمثال عصره من استرجاعها بوصفها وسيلة تمكنه من تقديم الامتنان والشكر لخالد الذي جاد عليه بفضله وانقذه بما حاق به من مظالم وهو تحت سطوة الأسر، كما ينبه على التأني والحكمة في اصدار الحكم.

وكما يظهر الشاعر الجاهلي سخطه وتذمره من افعال السلطة ناعتاً سدنتها بقلة الحلم في معرض فخره بنفسه واخواله عن طريق توظيف ذاكرته لاسترجاع ما توارث من الأمثال في فضاء الكون الشعري:

يُعَيِّرُنِي أُمِّي رِجَالٌ، لأَ أَخَا كَرَمٍ إلا بِأَنْ يَتَكَرَّمَا أَرَى
ومَنْ كَانَ ذا عِرْضٍ كَرِيمٍ فَلَمْ يَصُنْ لَهُ حَسَباً كَانَ اللَّئِيمَ المُذَمَّمَا
أُحَارِثُ إنَّا لَوْ تُشَاطُ دِمَاؤُنَا تَزَيَّلْنَ حَتَّى لا يَمَسَّ دَمٌ دَمَا
أُمُنْتَقِلاً مِنْ آلِ بُهْثَةَ خِلْتَنِي أَلا إنَّنِي مِنْهُمْ وإنْ كُنْتُ أَيْمَا
أَلاَ إنَّنِي مِنْهُمْ وعِرْضِي عِرْضُهُمْ كَذِي الأَنْفِ يَحْمِي أَنْفَهُ أن يُكَشَّمَا
وإنَّ نِصَابِي إنْ سألْتَ وأَسْرَتِي مِنَ النَّاسِ حَيٌّ يَقْتُلُونَ المُزَنَّمَا
وكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّمَا
لِذِي الحِلْمِ قَبْلَ اليَوْمِ ما تُقْرَعُ العَصَا وما عُلِّمَ الإنْسَانُ إلاَّ لِيَعْلَمَا[١٨]

إن حالة الانفعال النفسي التي ابداها الشاعر حيال الملك (عمرو بن هند) دعته إلى الارتداد بذاكرته نحو الماضي والعمل على استثمار المعنى الايحائي للمثل القائل: (إن العصا قرعت لذي حلم)، ويقال إن ذا الحلم هذا هو عامر بن الظرب العدواني، أحد حكماء العرب، لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً، فلما اصبح شيخاً كبيراً طاعناً في السن انكر من عقله شيئاً، فقال لبنيه: إني قد كبرت وعرض لي سهو، فإذا رأيتموني قد خرجت من كلامي وأخذت في كلام غيره فاقرعوا لي المجن بالعصا، حتى اعدل عنه إلى غيره من الصواب[١٩]، فأصبح قوله كوناً دلالياً مرتكزاً في الذاكرة الجاهلية لدلالته على ذهاب الحلم، وتمكن الشاعر من استدعاء فعل التذكر في قوله (لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا)، بوصفه وسيلة للتعريض بالملك فهو أصبح بحاجة إلى من ينبهه على هفواته وزلاته بعدما ذهب حلمه الذي كانت يتمتع به في الماضي، كما قرعت العصا المجن لعامر بن الضرب.

ونجد الشاعر الجاهلي يتجه إلى استدعاء المثل للملمة وصال ذاته المكلومة وما يعتريها من مشاعر الحزن والأسى على ثيمة الفراق والاخلاف بالوعد:

إذا أَلِحمَ الواشونَ للشّر بينا تبلغ رسُّ الحبِّ غير المكذّبِ
وما أنتَ أم تخلُّ بايَر أو باكنافِ شريب ربعيّة
أطعتَ الوشاةَ والمشاةِ بصرمِها فقد انْهجتْ حبالها للتقضّبِ

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

وقد وعدتَك موعداً لـــو وفتْ بـــه كمـــــوعدِ عرقـــوبِ أخـــاه بيثـــربِ[٢٠]

يفصح سياق النص عن حالة من الصراع النفسي ألهبت ذات الشاعر ودعته أن يكابد لوعة الشوق والحنين لتلك الحبيبة البعيدة، لذلك يهرب بذاكرته إلى الموروث الجاهلي ليستلهم أحداث المثل القائل (مواعيد عرقوب) وكانت العرب تضربه في الخلف والمماطلة، وعرقوب ((رجل من العماليق، أتاه أخ له يسأله، فقال له عُرْقُوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها، فلما أطلعت أتاه للعدة، فقال: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهواً، فلما زهت قال: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمراً فلما أتمرت عمد اليها عرقوب من الليل، فجدها ولم يعط أخاه شيئاً، فصار مثلاً في الخلف))[٢١] يتداوله المجتمع الجاهلي بوصفه دلالة كونية تحيل على واقع معيش محفوظ في الذاكرة الجمعية العربية، فقد استرجعه الشاعر لا شعورياً في قوله (كموعد عرقوب أخاه بيثرب) متخذاً منه وسيلة لتبرير صنيعه، فهو لم يقدم على اطاعة الوشاة والمغرضين بقطع أواصر الود والمحبة بينهما إلا بعد أنْ أخلفت موعدها له مراراً، مثلما أخلف عرقوب وعده لأخيه .

وكما نجد الشاعر الجاهلي يفتخر بقوة قومه وبسالتهم في مواجهة خصومهم من القبائل الاخرى واخضاعهم لأمرهم، من خلال استرجاعه الذاكراتي لكونية المثل وعموميته، وتضمنه فعل التذكر :

فَلَـمْ تَمْنَعُـوا مِنَّـا مَكَـانـاً نُرِيـدُهُ لَكُـمْ مُحْـرزاً إلا ظُهُـورَ المشَـارِبِ
فهلاَّ لَدَى الحَـرْبِ العَـوَانِ صَبَرْتُـمُ لِوَقْعَتِنَـا والبـأسُ صَعْـبُ المَـرَاكِـبِ
ظَأرْنَـاكُـمُ بالبيـضِ حتـى لأنْتُـمُ أذَلَّ مِـنَ السَّقْبَـانِ بَيـنَ الحِـلاَئبِ
ولمّا هَبَطْنَا الحَـرْثَ قَـال أميرُنَـا: حَرَامٌ عَلينا الخَمْـرُ ما لَـم نُضَـارِبِ[٢٢]

إذ أنَّ السقبان جمع سقب وهو ولد الناقة، أو ساعة ولادته، والحلائب جمع حلوبه، وهي الناقة المحلبة، وضربت العرب المثل به لأنها تقبض وتردد وتدفع وتشد فيصيبها الصغار والهوان[٢٣]، فمضى الشاعر إلى الماضي الاجتماعي المتوارث فاستحضره لفظاً ومعنى في كينونة الحيوان، وكونية التداول في قوله (أذل من السقبان بين الحلائب) كأداة يبز بها شراسة قومه وذودهم دفاعاً عن قبيلتهم حيث أقحموا العدو وانزلوهم في دار الذل والهوان كما ابناء النوق الضعاف الذليلة بين الحلائب، تحت وطأة سيوفهم وبسالة أبنائهم.

وعبر الشاعر الجاهلي عن استيائه و تضجره من فعل قبيلة اخرى، حيث أقدم على هجاء احد شخصياتها باستذكار المعنى الايحائي للمثل:

فإنكُـــمُ ومِدْحَتَكُـــمْ بُجَيْـــراً أبَا لَجَأ كمـا امْتُدِحَ الألاءُ
يَرَاهُ النّاسُ أخْضَـرَ مِن بَعِيـدٍ وتَمنَعُـهُ المَـرَارَةُ والإبَـاءُ[٢٤]

والالاء جمع ألاءة، وهي شجرة حسنة المنظر، تخضر أوراقها في الشتاء والصيف، وحملها دباغ[٢٥]، فضرب العرب بها المثل للشيء الذي يحسن منظره ويسوء مخبره[٢٦]، وبذلك غدت كونية المثل متجسدة في ذاكرتهم الجمعية (بني لام) ، وقد تمكن الشاعر من استرجاع فعل التذكر فيه بقوله (أبا لجأ كما امتدح الألاء) للحط من شأن ذات المهجو (بجير بن اوس) ، فهو لا يستحق المدح والثناء، لأنه يخدع الناس بمظهره ويضمر في داخله السوء، كما يمدح الناس شجرة الالاء لجمالها وحسن منظرها، لكن تخفي داخلها مرارة تمنع الانتفاع بها.

وقد صور لنا الشاعر الجاهلي معاناته الاجتماعية التي عايشها عندما قطع وادٍ موحش قفر في أحدى رحلاته، فحاول الشاعر ان يجسد لنا القلق الذي هيمن عليه بوساطة فعل التذكر في بنية المثل :

ووادٍ كجوْفِ العَيْـــرِ قفْـــرٍ قطعتُـــه به الذّئبُ يعوى كالخليـــعِ المعيِّلِ

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

فقلتُ له لمّـــا عَـوَى إنَّ شـــأنَنَـا طويلُ الغِنَى إنْ كنتَ لمَّـا تَمَـوَّلِ
كِلانا إذا مـا نـــالَ شيئـاً أفاتَـــهُ ومَن يحترثْ حَرْثِى وحرثَكَ يُهْزَلِ[٢٧]

إذ يحمل النص مكنون نفس الشاعر من الاحساس بالوحدة والقلق من هذا المكان الموحش، فيلجأ بخياله إلى الماضي ويستلهم معنى المثل القائل (اخلى من جوف حمار)، وقد أختلف العرب في ماهيته فمنهم من قال أخرب من جوف حمار((هو رجل من عاد وجوفه واد كان يحله ذو ماء وشجر فخرج بنوه يتصيدون فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم فكفر وقال لا أعبد ربا فعل ذا ببني ثم دعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله فأهلكه الله وأخرب واديه))[٢٨]، ومنهم من يرى هو الحمار بعينه فإذا ((صيد لم ينتفع بشيء مما في جوفه بل يرمى به ولا يؤكل))[٢٩]، وقد ضربته العرب للهلاك والخراب، إذْ تسربت دلالته إلى رصيد ذاكرتهم الجمعية ، فاستذكر الشاعر الفعل في قوله (وواد كجوف العير قفر قطعته) بوصفه وسيله تمكنه من إيصال تجربته وإحساسه إلى المتلقي والعمل على اثارته وجعله يتعايش معه في اللحظة الراهنة، بوساطة وصفه لسيره وحيداً يعاني الغربة وتحفه المخاطر من كل جانب قاطعاً ذلك الوادي القفر الخراب الذي ليس فيه من يؤنسه سوى سماعه لعواء الذئب الذي انهكه شدة الجوع كالرجل المقامر الذي خسر ماله وترك عياله جياعاً، فما كان له إلا محاورته ليتغلب على تلك الصعاب واجتياز تلك الصحراء القفرة التي لا نفع لهما بها .

وكما يعلي الشاعر الجاهلي من شأن قومه فهم اصحاب قوة وحزم لا يردون مستغيثاً يلوذ في حماهم بوساطة ما يمتلك من ذاكرة غنية واحاطة واسعة بالأمثال الموروثة وكونية تداولها:

كُنّـــا، إذا مـــا أتانـــا صـــارخٌ فُـــزِعٌ كـــانَ الصُّـــراخُ لَـــه قَـــرعَ الظَّنَـــابيبِ[٣٠]

إذ كانت العرب تطلق اسم الظنبوب على حرف عظم الساق، ويقال قد قرع الأمر ظنبوبة إذا جد فيه ولم يفتر[٣١]، فذهب مثلاً مرتكز في أذهانهم (طرق ساق ظنبوبة) وقد تمكن الشاعر من استدعائه في قوله (كأن الصراخ له قرع الظنابيب) كوسيلة تمكنه من ارساء ما تأصل في قومه من قيم وعادات، فهم إذا ما دعاهم مستغيث لنصرته عزموا على اجابته بان يسرعوا بضرب سيقان الابل لتبرك فيركبوا عليها تلبية لندائه، وبهذا غدا المثل ذكرى تستدعى لدلالة على فعل العزم.

ويبدي الشاعر الجاهلي استياءه وتذمره من الخوض في أعراض الناس ومقابلتهم بالإساءة من خلال استذكار دلالة المثل:

لأصْبَـحَ كَالشَّقْـراءِ لَـمْ يَعْـدُ شَرُّهـــا سَنَابـــكَ رِجْلَيْهـــا وعِرْضُـــكَ أوْفَـــرُ[٣٢]

إذ أن الشقراء ((كانت فرساً جموحاً، يتشاءم بها، فجمحت بصاحبها، فوقعت في جرف، فسلم هو، وهلكت الفرس، فأتى الحي فسألوه عنها، فقال: إن الشقراء لم يعد شرها سنابك رجليها))[٣٣]، فضرب بها المثل للشؤم،(اشأم من الشقراء على نفسها) وعمد الشاعر إلى كونية تداوله لاسترجاع فعل التذكر في قوله (لأصبح كالشقراء لم يعد شرها) ليعلن من خلاله عن نبذ هذه العادة السيئة، وبيان أضرارها ومدى خطورتها والعمل على الحد من تفشيه في المجتمع، فهي تحيق بصاحبها وتقلل من شئنه، فإنَّ الخائض يعود عليه إثم خوضه كما الفرس (الشقراء) يتخطى شؤمها موضع قدميها[٣٤].

ويعيب الشاعر الجاهلي على المرء ترك شأنه والتدخل في امور غيره مستذكراً دلالة المثل:

كَتَـــارِكَـــةٍ بَيْضَهـــا بالعَـــــرَاءِ ومُلْبِسَـــةٍ بَيْضَ أُخْـــرَى جَنَاحهـــا[٣٥]

إذ أن من عادة النعامة ((أنها تنتشر للطعم، فربما رأت بيض نعامة أُخرى قد انتشرت هي له، فتحتضن بيضها وتنسى بيض نفسها، ثم تجيء الأخرى فترى غيرها على بيض نفسها فتمر لطيتها))[٣٦]، فذهب مضرباً للمثل (أحمق من نعامة)، ومن ثم وظفه الشاعر ظهور الاجتماعي في الشاهد ليوسم الذي يترك

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

شأنه ويتدخل في شأن غيره بالحمق، كما النعامة تترك بيضها بالعراء وتحتضن بيض غيرها، فهو يريد أنْ يلفت انتباه المتلقي إلى فعل التذكر في بغض إهمال الأمر المطلوب والعناية بغيره .

ويرى الشاعر الجاهلي أنَّ العيون تفضح ما تكنه الأنفس وتخفيه القلوب من حب أو بغض، وذلك من مفاهيم البنية الاجتماعية:

فـإن تـك في صديـق أو عـدو تخبـرك العيـون عـن القلـوب(٣٧)

فكانت العرب تضربه في الاستدلال بالنظر على المحبة(٣٨)، فالصب تكشفه عيونه، وقد أحال الشاعر على فعل التذكر في كونية الدلالة بقوله (تخبرك العيون عن القلوب)، بأسلوب ينمي عن براعة في التصوير وقدرة على انتقاء المعنى، فالعيون منبع الإحساس عاكسة لما في وجدان صاحبها من محبة أو عداوة .

وقد استند الشعراء الجاهليون على ما تسرب إلى الذاكرة الجمعية العربية من امثال تحيل في مضامينها على الاساطير والخرافات اختلقها المجتمع الجاهلي، وقد تمكنوا من استرجاع فعل التذكر لأنها لامست مشاعرهم وأحاسيسهم وعكست صورة من صور واقعهم الآني، إذْ يكشف الشاعر الجاهلي في بوحه النصي عن عمق الألم والانكسار لتحقق توقعاته:

ظَعَنَ الذيـنَ فِراقهـم أتَـوقَّـعُ وجرى ببَيْنِهِـمُ الغُـرابُ الأبْقَـعُ
حَرِقُ الجَنَاحِ كَأنَّ لَحْيَيْ رَأسِـهِ جَلَمانُ بالأخْبَـار هَـشٌّ مُولَـعُ
فَزَجَـرْتُـهُ أَلَّا يُفَـرِّخَ عُشَّـهُ أبداً وَيُصْبِـحَ واحِـداً يَتَفَجَّـعُ
إنَّ الذيـنَ نَعَبْتَ لـي بفِـراقِهِـمْ قَدْ أسْهَروا لَيْلي التَّمامَ فَأوْجَعُوا(٣٩)

يبدي الشاعر سخطه وتطيره من هذا الطائر المولع بتفريق الأحبة، فيذهب بخياله نحو الماضي ويستذكر ما أمن به من العرب من اساطير وصدقوها فيستدعي المثل (اشأم من غراب البين)، إذْ كانت العرب تتطير من الغراب وتعده نذير شؤم لأنَّه باعتقادهم ((ينعب في منازلهم إذا بانوا عنها وينزل في مواضع إقامتهم إذا ارتحلوا منها. فلما كان يوجد عند بينونتهم اشتقوا له اسما من البينونه وتشاءموا به لإنذاره بالبين وإعلامه بالفراق))(٤٠)، ومن ثم علق هذا الأمر في اذهانهم فندبوا به الأحبة وتحسروا على رحيلهم، إلا إنَّ الشاعر بوساطة فعل التذكر علق العلة في الرحيل على الأسطورة في (وجرى ببينهم الغراب الأبقع) كردة فعل لتجسيد معاناته النفسية لفراق حبيبته، التي يدفعه الحنين اليها ويتوق إلى لقائها، فيصور بشاعة منظره وصوته الكريه الذي انبأه بفراقهما، فأجابه بالزجر داعياً ألا يفرخ عشه ليذوق ألم الوحدة لعدم وجود شيئ يؤنس به.

ويشيد الشاعر الجاهلي بقوة حلفائهم وتمكنهم من غلبة الأعداء بوساطة استذكار فعل وكونية حكاية المثل:

وَحَيَّ أبي بَكْـرٍ تَدَارَكْـنَ بَعْدَمَـا أدْاعَتْ بسِرْبِ الحَيِّ عَنْقَـاءُ مُغْرِبُ
رَدَدْنَ حَصَيْناً من خـدِيٍّ وَرَهْطِـه وَتَيْـمٌ تُلبِّـي بالعُـرُوج وتَحْلُـبُ(٤١)

لقد كان لأهل الرس نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، وكان في أرضهم جبل شديد الارتفاع يقال له دمخ، وكانت تنتابه طائرة لها عنق طويل، فيها من كل لون، وتعد من أحسن الطيور، فكانت تنقض على طيور الجبل فتأكلها، وفي أحد الأيام أحست بالجوع واعوزت الطير ولكنها انقضت على صبي فذهبت به، وبعد ذلك انقضت على جارية فضمتها إلى جناحيها ثم طارت بها، فشكوا ما حصل إلى نبيهم، فدعا عليها بقوله: اللهم خذها، واقطع نسلها، وسلط عليها آفة، فأصابتها صاعقة فاحترقت(٤٢)، فضربت العرب تلك الاسطورة (طارت بهم العنقاء) بها مثلاً للقوة، حيث إنها تغرب كل ما أخذته، فأرتكز هذا المفهوم تداولياً في الفكر

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027

الجاهلي، إذ (أذاعت بسرب الحي عنقاء مغرب) ليصور عظمة أحداث المعركة بعد أن أوقعت بهم قبيلة طي خسائر فادحة في الأرواح ومن ثم يعرج بعد ذلك على شجاعة قبيلة غنى حين تداركت الأمر وقلبت موازين المعركة لصالحهم فقد انقضت على الأعداء ملحقة فيهم خسائر فادحة كما طائرة العنقاء تنقض على فريستها في ظهورها الاسطوري الكوني .

ويظهر الشاعر الجاهلي خوفه وقلقه من التهم المنسوبة إليه من قبل السلطة، فيحاول ان يظهر براءته بوساطة فعل التذكر:

حَلَفْتُ، فلـم أتـرُكْ لنَفسِكَ ريبـةً، وهلْ يأثمَنْ ذو أمّةٍ، وهوَ طائِـعُ؟
لكَلَّفْتَنـي ذنْبَ امـرئٍ وتـرَكْتَـه كذي العُرِّ يُكوَى غيرُهُ، وهو راتِعُ (٤٣)

إذ كانت من معتقدات العرب الأسطورية (إن الإبل إذا فشا فيها العر- وهو قروح تخرج بمشافر الإبل- أُخذ بعير صحيح وكوى بين أيدي الإبل بحيث تنظر إليه، فتبرأ كلها)(٤٤)، فذهبت هذه الأسطورة مضرباً للمثل ((كذي العر يكوى غيره وهو راتع))، وبذلك أصبح فعلها التذكري يوظف في أخذ البريء بذنب صاحب الجناية ، وتمكن الشاعر من استثمار كونيتها التداولية بوصفها وسيلة للتبرؤ مما لحق به، ويلتمس الأدلة والبراهين لبراءته، فإن عقاب الملك (النعمان بن المنذر) له وتركه للمذنب كالبعير السليم الذي يكوى ويترك الأجرب بدون كوي.

الخاتمة

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث :

و مما تقدم يتضح سعي الشعراء الجاهليين إلى استدعاء الموروث العربي القديم المتجسد بـ (الأمثال) وتضمينه قصائدهم بصورة فعل التذكر، فتنوعت على حسب ما يضمرون في أنفسهم، منها أمثال واقعية، منها أمثال تاريخية واجتماعية واسطورية، تناقلت عبر الزمن فاختزنت في كونية اللاوعي الجمعي الجاهلي، ومن ثم كانت وسيلة لإشباع حاجاتهم ورغباتهم المختلفة التي استنزفوها في مختلف الأغراض الشعرية والعادات والتقاليد الاجتماعية .

الهوامش

(١) الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، د. حسني عبد الجليل: ٤٨٢ .
(٢) ينظر: السرد القصصي في الشعر الجاهلي، أ. د. حاكم حبيب الكريطي: ٢٦٤ .
(٣) جمهرة الأمثال، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: ١٠/١ .
(٤) مصادر ثقافة أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم ما لا يلزم، خنازي علي: ١٨٣ .
(٥) ينظر: معجم المصطلحات الادبية المعاصرة، د. سعيد علوش:٢٠٢ .
(٦) ينظر: الاعلام عند العرب قبل الاسلام، امل عجيل ابراهيم الحسناوي "رسالة ماجستير" ، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ١٤٣١ه- ٢٠١٠م: ٢٤٥ .

ISSN-2536-0027

(٧) ينظر: الأمثال وتوظيفها في الشعر الجاهلي، د. أمين إسماعيل، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية: مج/٢، ع/ ٣٣.

(٨) ديوان النابغة الذبياني: ١٠- ١٢ .

(٩) ينظر: أمثال العرب، المفضل محمد بن يعلى بن عامر الضبي (١٦٨ه): ١١٨ .

(١٠) المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، سليمان بن صالح الخراشي: ١٥٠.

(١١) ديوان الأصمعيات، والنص للشاعر علباء بن الأرقم: هو علباء بن أرقم بن عوف اليشكري، شاعر جاهلي، ينظر موسوعة الشعراء الجاهليين:.

(١٢) ينظر : زهر الأكم، للحسن اليوسي، ج/٣: ٢١١.

(١٣) ديوان الخنساء: ٢١.

(١٤) ديوان عامر بن الطفيل: ٧٢..

(١٥) ينظر : صورة الحرب في الشعر الجاهلي، د. خليل عبد سالم، مجلة جامعة قطر، ع ٢٨، ٢٠٠٦م.

(١٦) ديوان المثقب العبدي: ٢٠- ٢١.

(١٧) مجمع الأمثال: ١٩/٢.

(١٨) ديوان المتلمس الضبعي: ٤١- ٢٦.

(١٩) ينظر: مجمع الأمثال: ٤٠/١.

(٢٠) ديوان علقمة بن عبده: ١٠.

(٢١) المنتقى من أمثال العرب: ١٥٧.

(٢٢) ديوان قيس بن الخطيم: ٩٣- ٩٤.

(٢٣) ينظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم: ٣/ ١٥.

(٢٤) ديوان بشر بن أبي خازم: ٦٣- ٦٤.

(٢٥) ينظر: المستقصي في أمثال العرب، العلامة الأديب أبي القاسم جار الله محمود بن عمرو الزمخشري المتوفي(٥٣٨- ١١٤٤ه): ١/ ٣٦٢- ٣٦٣.

(٢٦) ينظر : الأمثال وتوظيفها في الشعر الجاهلي: ١٠٥٨.

(٢٧) ديوان امرؤ القيس: ٣٧٢.

(٢٨) مجمع الأمثال: ١/ ٢٦٨.

(٢٩) م. ن. : ١/ ٢٦٨.

(٣٠) ديوان سلامة بن جندل: ١٢٣.

(٣١) ينظر: مجمع الأمثال:٢/ ٤٠.

(٣٢) ينظر: ديوان بشر بن أبي خازم: ٨٥.

(٣٣) جمهرة الأمثال: ٤٥٥.

ISSN-2536-0027

(٣٤) ينظر: الأمثال وتوظيفها في الشعر الجاهلي، د. اسماعيل توفيق بدران، المجلة الحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، مج ٨، ع ٣٣: ١٠٨١.

(٣٥) ديوان أبو داوود الأيادي: ٧١.

(٣٦) مجمع الأمثال: ١/ ٢٣٤.

(٣٧) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٢٤٦.

(٣٨) ينظر: مجمع الأمثال: ١/ ١٦٧.

(٣٩) شرح ديوان عنترة بن شداد: ٩٤.

(٤٠) زهر الأكم: ١/ ٢١٠.

(٤١) ديوان الطفيل الغنوي: ٦٦.

(٤٢) مجمع الأمثال: ١/ ٤٤٣.

(٤٣) ديوان النابغة الذبياني: ٨٨.

(٤٤) ينظر : مجمع الأمثال: ٢/ ١٠٣.

المصادر

- الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، أ. د. حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة.
- الإعلام عند العرب قبل الإسلام، امل عجيل ابراهيم الحسناوي" رسالة ماجستير"، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ١٤٣١ه- ٢٠١٠م.
- الأصمعيات، أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الله (١٢٢- ٢١٦)، تحقيق: أحمد شاكر و عبد السلام هارون، بيروت- لبنان،ط٥.
- الأمثال وتوظيفها في الشعر الجاهلي، د. امين اسماعيل، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، مج٢، ع٣٣.
- أمثال العرب، المفضل محمد بن يعلى بن عامر الضبي(١٦٨ه)، تحقيق: د. قصي الحسين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ٢٠٠٣م، ط١.

ISSN-2536-0027

- جمهرة الأمثال، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٠٨ه- ١٩٨٨م، ط١،ج١.
- ديوان أبو داوود الأيادي، تحقيق: انور محمود الصالحي و د. أحمد هاشم السامرائي، دار العصماء، دمشق- سوريا، ١٤٣١ه- ٢٠١٠م، ط١.
- ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٥.
- ديوان بشر بن أبي خازم، مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٥ه- ١٩٩٤م،ط١.
- ديوان الخنساء، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م،ط٢.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٦٢ه- ٢٠٠٥م، ط٢.
- ديوان سلامة بن جندل، محمد بن الحسن الأحول، تحقيق: د. فخر الدين قباوه، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١.
- ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق: حسان فلاح اوغلي، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٩٩٧م، ط١.
- ديوان عامر بن الطفيل، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٣٩٩ه- ١٩٧٩م.
- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت- لبنان.
- ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق: حسن كامل الصيرافي، ١٩٧٠م.
- ديوان المثقب العبدي، تحقيق: حسن كامل الصيرافي، ١٣٩١ه- ١٩٧١م.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البتاني، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٣ه- ١٩٦٣م.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن اليوسي، تحقيق: د. محمد حجي و د. محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، ١٩٨١م، ط١، ج٢، ج٣.
- السرد القصصي في الشعر الجاهلي، أ. د. حاكم حبيب عزر الكريطي، تموز طباعة. نشر. توزيع، دمشق، ٢٠١١م، ط١.
- شرح ديوان عنترة، الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٢ه- ١٩٩٢م،ط١.
- صورة الحرب في الشعر الجاهلي، د. خليل عبد سالم، مجلة جامعة قطر، ع٢٨، ٢٠٠٦م.
- مجمع الأمثال، أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني المتوفي (٥١٨ه)، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، ج١، ج٢، ج٣.
- مصادر ثقافة أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم ما لا يلزم، علي كنجبان خنازي، الدار الثقافية للنشر، ط١.
- معجم المصطلحات العربية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ١٤٠٥ه- ١٩٨٥م، ط١.
- المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، سليمان بن صالح الخراشي، دار قاسم للنشر والتوزيع، ١٤٢٨ه- ٢٠٠٧م، ط١.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات العدد العشرون – نيسان ٢٠٢٣ – رمضان ١٤٤٤
ISSN-2536-0027